الحارس اليقظ

يحكى أن في ليلة شتائية قارسة البرد، كان الفتيان الشقيقان صباح وزوزو وحدهما في كوخهما وسط الحقول، فأهلهما وإخوانهم كلهم نزلوا إلى المدينة بمناسبة العيد.

أطفأ زوزو الفانوس، فالساعة الواحدة بعد منتصف الليل. حاول أن ينام إلا أنه لم يستطع، باله عند أهله، وإخوته الصغار خاصة أخته الصغيرة روز.

كان خوفه عليهم من زحام المدينة، ومخاطر الطريق، وربما كان خوفه من هاجس غريب وشوش في أذنه أبعد عنه النوم لا يدري كنهه، في حين كان أخوه صباح يغطّ في نوم عميق منذ أكثر من ساعة.

وبدأ المطر يرشق النافذة بقوة، كان زوزو يسمع صوته على أوراق الأشجار وعلى الأرض، وبين الفينة والفينة كان صوت العاصفة بين الأغصان يأتيه ممزوجاً بهدير الرعد، ومن بين فتحات الستائر كان يأتيه لمعان البرق برشقات ضوئية يضيء الغرفة في لحظات ثم يختفي مع جلجلة الرعد.

ابتسم الفتى زوزو، فرح بصوت المطر كأي فلاح آخر، وهمس في نفسه: هذه السنة مطّارة، فمنذ أن بذرنا الحبوب والأمطار لما تنقطع إلى حد الآن، إنها بشائر الخير تلوح لنا، والحمد لله والشكر.

حاول أن ينام، تقلّب في فراشه، وسنابل القمح تتراءى أمامه وهي تتمايل في الربيع كلما لامسها النسيم، ضحك وقال: السنة حقاً مطّارة والخير من بركات السماء.

وضع زوزو رأسه على مخدته، أغمض عينيه، إلا أن صوتاً داخلياً يقول له: لا تنم يا زوزو ... فينهض سريعاً ويرسم إشارة الصليب على صدره، ثم يهمس: لماذا هذا الصوت؟! هل هو رسالة؟!.

توقف هطول المطر، إلا أن صفير العاصفة ما زال يأتيه مختلطاً مع عواء حزين لكلبه ذيبان.

- ما به هذا الكلب يعوي بهذه الصورة الحزينة؟! من الأفضل له أن يختفي من المطر والريح في إحدى زوايا الزريبة، وبصمت الفتى زوزو قليلاً ... ويهز رأسه باسماً ويقول: لا ... لا ... إنه كلب يقظ يقوم بواجبه في هذه الليلة المظلمة الممطرة، إنه عدو الذئاب واللصوص ... والثعالب الماكرة.

وبدأ العواء من جديد ... عواء طويل حزين. في هذه اللحظات من الترقّب والقلق، سمع زوزو طرقاً على باب كوخه ... طرقاً متواصلاً. انتفض من فراشه وهو يرسم إشارة الصليب، يا إلهي! من يطرق الباب في هذه الليلة المظلمة الممطرة الباردة!.

وتنصت من وراء النافذة، فلم يسمع سوى الطرقات وعويل الرياح، ولم ير شيئاً ... الطرقات على الباب مستمرة، وعويل الريح لا ينفك يأتيه مع صوت المطر والرعد ... وهنا صاح زوزو: يا صباح انهض، وهز كتف أخيه برفق.

فتح صباح عينيه: ما الأمر يا أخي زوزو؟!!.

- ألا تسمع صوت طرقات على الباب؟ هيا انهض لنرى ما الأمر!!.

أخذ زوزو هراوته تحسباً للطوارئ، ولـف رأسـه بيشماغه، وكذلك فعل صباح ... إنهما فتيان شـجاعان ... وفتحا الباب بحذر ...، أهذا أنت يا ذيبـان تطـرق الباب؟! ومسح على رأسه المبلّل برفق.

- ها ماذا تريد أن تقول؟ أي خبر جئتني به في هذه الليلة يا ذيبان؟!!.

هز ذيبان ذنبه ورفع خطمه إلى أعلى وأطلق عواءه، عواءً طويلاً حزيناً ... ثم مـشى أمـام صـاحبيه زوزو وصباح، وبعد كل خطوتين كان يلتفت إلى الوراء ليتأكد من أنهما يتبعانه.

مشى الفتيان وراء كلبهما في الحقل وبين الأشجار وتحت المطر مسافة مئة متر وتوقف زوزو مـذهولاً!!... ياه!... ما هذا يا صباح؟!.

كان أمامهما شاب ملقى على الأرض مبتلّ الثياب وحصانه واقف بجانبه لم يفارقه ... صهل الحصان صـهيلاً مفزعاً وضرب قدمه بالأرض محذّراً من يريد الإسـاءة إلى صاحبه ... صفّر له زوزو صفيراً هادئاً، ثم ربت على رقبته ... فهو فلاح يعرف بطبائع الخيل ... ثم اقتربا من الشاب ووضعاه فوق حصانه، وأتيا به إلى كوخهمـا ... وعلـى ضوء الفانوس رأيا أن جبهته مصابة بجرح وثيابه ملطّخـة بالدماء ... مسحا وجهه بماء بارد.

فتح الشاب عينيه وقال: أين أنا؟.

- أنت في بيتك ... وبين أهلك. لا تخف يا أخـي، وناوله زوزو قدح ماء ... وسأله: مـا اسـمك؟ ومـن ضربك؟.

- اسمي محمود، ولم يضربني أحد، لقد زلقت قـدم حصاني فسقطت، وارتطم رأسي بجذع شجرة ... وفقدت الوعي.

- الحمد لله، إصابتك خفيفة. ثم قدم له حليباً ساخناً وجبناً وخبزاً.

رفع زوزو نظره إلى الصليب المعلّق علـى جـدار الغرفة، كان الصليب يشع نوراً، ملأ الغرفة ضياءً وكأنـه يريد أن يقول بلسان معلّمنا العظيم:

إنّ ما فعلتماه أيها الفتيان الشجاعان هو المحبة عينها ... هو الإحسان عينه ... أحبوا بعضكم بعضاً.

القـاص

زهير إبراهيم رسام